مِنْ أخلاَقِيَاتِ طَالِبِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ في الأَخْذِ والكتَابَةِ والتَّأْلِيفِ

طالب الدكتوراه: إبراهيم يوبي
(جامعة تلمسان – الجزائر)

الملخص بالعربية

يعتبر العلم من أهم الأعمال الجليلة التي يشتغل بها الإنسان عموما والمسلم خصوصا طلبا وتعليما وكتابة وتأليفا، وبعد ظهور بعض السلوكيات السيئة التي تتنافى مع روح العلم و أخلاقياته كتبنا هذا البحث الذي يهدف إلى التعريف بمصطلح العلم و تقسيمات العلماء له وإبراز بعض المعاني السامية لمصطلح العلم النافع وهو ما أثمر عملا صالحا، وركزنا على بعض الأخلاقيات التي ينبغي مراعاتها في كل مراحل العملية البحثية من أولها إلى آخرها و التي تعتبر قوة دافعة وروحا عاصمة من الوقوع في الكثير من الانزلاقات التي تتنافى مع العملية البحثية، وما هذه الأخلاقيات إلا سلوكات طيبة ضاربة في القدم توارثها الخلف عن السلف تقتضي الصدق والأمانة العلمية والاعتراف بالفضل لأهله وعدم القفز على مجهودات الآخرين وتصفية القصد من كل الشوائب والحظوظ الخسيسة.

Abstract

Science is considered to be the most important work practiced by man in general and Muslim in particular; especially in demand, education , writing and adaptation. And after the emergence of some bad behaviors that are contrary to the spirit of science and ethics ,we wrote this research , which an ins to introduce the term science and highlight some of the meanings of the term beneficial science , this is what led to good work and focused on some of the ethics that should be observed in all stages of scientific research from the first to the last

which is a driving force and spirit to avoid falling in a lot of glitches that are inlompatible with scientific research. This ethics are just good behaviors we took it from our grand-parents that requires honesty , scientific honesty and recognition of the credit to his people and not to abandon the efforts of others and the elimination of oppression of all impurities and the lousy lenis

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على المبعوث رحمة للعالمين، أما بعد:

فلما كان العلم من أجل القربات التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه تعالى، وأوَّلُ خطاب سماوي خُوطِبَتْ به الأمة الإسلاميَّة مُجَسَّدًا في شخص نبيها محمد صلَّى الله عليه وسلم، احْتَفَتْ الأمَّة الإسلامية بالعلم أيَّما احتفاء، وعرَفَت شرفَهُ وفضلَه، فصَرَفَت جُهُودَهَا وأوقَاتَها في سبيل تحصيلِه ونشرِه وإذَاعتِه وخدمَتِه، فصَدَّرَت بالكلام عنه وعن أهلِه الكتب والمؤلفات، وشيَّدَت المدارسَ والمعاهد والمساجد والجامعات، تقديراً للعلم وأهلِه، وإن كان العلم في أغلب المجالات ومختلَفِ الحقُولِ عظيما، وصاحبُه مُكَرَّمًا مَصُونًا، يختلف عن باقِي النَّاس في تصرُّفَاتِه وأخلاقِه ومنْهَجِ حيَاتِه وطريقةِ فكْرِه عمُومًا، فإنَّ علمَ الشَّريعَةِ أعظَمُ خطَراً وأرفعُ منزلةً؛ لأنَّه يتعلَّقُ بالوحي السَّماوي الذي لا يأتِيهِ الباطل من بين يديه ولا من خلْفِه، ولأنَّ صاحبَه يُعْتَبَرُ أمينا على ميراث وتركةِ الأنبياء والمرسلين، إذ شَرَفُ المتعلِّقِ مرتبط بشرف المُتَعَلَّقِ، لأجل هذا عكفَ علماء الإسلام الراسخُونَ على تَبْيِينِ فضلِ العلم والتعَلُّمِ والتَّعْلِيمِ، وفرَّقُوا بين علوم الدُّنيا وعلوم الآخرة، وبين العُلُوم المحمُودُة والمذمُومَة، ولكَوْنِ المَرْكِبِ خَشِنًا والعَقَبَةِ كَؤُودًا ذكرُوا آداباً وأخلاقيَاتٍ لابُدَّ لطالب العلم أنْ يَتَخَلَّقَ ويَتَزَيَّنَ بها وإلاَّ كان علمُه وَبَالاً عليه، وذكرُوا آفاتِ العلم، والعلامات الفارقَةِ بين علماءِ الدنيا وعلمَاءِ الآخرَةِ، كمَا فعل ذلك الحَبْرُ الهمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه "إحياء علوم الدين" الذي يعتبر مرجعا هامًّا لعلماء التزكية، ونظريَّةً شاملَة في علم التَّربية والسُّلوك، بغَضِّ النَّظرِ عن تلك المآخذ التي لوحظت عليه.

وكما أنَّ للعلم حدُودًا وتقسيمات فإنَّ له مقَاصدَ وغايَاتٍ يصبو إليها، ومن أبرز وسائل إشاعة العلم الكتابَةُ والتَّأليف، ولأجْلِ هذا الغَرَضِ بَيَّنَ العلماء مقاصد الكتابة والتصنيف وغاياتهما؛ كما فعل عبد الرحمن بن خلدون في الفصل الخامس والثلاثين من كتابه "المقدمة"، فالكتابة عند الباحث المسلم ليست هواية أو ترفا فكريا يسجله الإنسان لما تجود به قريحته بل يجب أن يكون منطلقه في ذلك جانب التعبد والتقَرُّب إلى الله تعالى حتى يكون عاصما له من الوقوع في كثير من الآفات، التي صارت تعترض العملية البحثية؛ كالانتحال والتَّدليس والسَّطو على جهود الآخرين الفكرية وادِّعَائِها للنَّفس، بضمير ميت وسلوك جبان يتنافى مع الأعراف والأخلاقيات، وهو ما صار يطلق عليه مصطلح "السرقات العلمية" التي عمَّت بها البلوى؛ وصارت ظاهرة خطيرة تؤرِّقُ الضَّمائرَ الحَيَّةَ، إذ من شيم أهل العلم الاعترافُ بالفضل لأهله، وعزو الفوائد والنقول إلى قائليها؛ فمن فعل ذلك بُورِكَ له في علْمِه وحاله؛ كما قرر ذلك العلماء؛ لذلك جعلت الشريعة الإسلامية توريث العلم النافع من الأعمال التي لا يتوقَّفُ ثواب صاحبِها حتى بَعْدَ موتِه، لذلك ينبغي تصفية القصد من كلِّ الشَّوائب والحظوظ النَّفسيَّة الدَّخيلَة.

وبناء على ما سبق ذكره، حاولنا أن تكون هذه الورقة بعنوان: "من أخلاقيات طالب العلم الشرعي في الأخذ والكتابة والتأليف".

وسنحاول الإجابة عن بعض التساؤلات:

ما هي المعاني الكبرى للعلم الشرعي عند سلفنا الصالح؟ وما هي أبرز صفات وأخلاقيات طالب العلم في كل المراحل التي يمر بها؟ و هل كل علم ينفع صاحبه يوم القيامة؟

وإذا كانت الكتابة والتأليف من وسائل تخليد العلم، وتَوْرِيثِه للأجيال؛ فما هي مقاصد وأغراض التأليف عند العقلاء؟ وعند الباحثين في العلوم الإسلامية على وجه الخصوص؟

وقد قسَّمنا هذا البحث إلى مطلبين وخاتمة؛ على النحو التالي:

المطلب الأول في حقيقة العلم وتقسيماته.

المطلب الثاني أصول آداب طالب العلم الشرعي في الأخذ والكتابة والتأليف.

المطلب الأول: تعريف العلم وتقسيماته

تكلَّم العلماء كثيرا على فضيلة العلم وشرف أهله، وتبيين طرق تحصيله وذكروا آدابه سواء المتعلِّقَة بالعالم أو المتعلِّم على حدٍّ سواء، ولم يُعْنُوا كثيرا بتوضيح ماهيَّته أو إعطائِه حدًّاً كونُه من الأمور الواضحة التي لا تحتاج إلى بيان، بل امتَنَعَ البعض عن ذلك واعتبره هدرا للوقت والجهد الذي ينبغي تجنبه؛ لذلك سنحاول ذكر بعض ما قيل في تعريفه خصوصا عند اللغويين والمناطقة الذين يركزون على ذلك؛ لأن القاعدة عندهم أنَّ الخطأ في التصورات ينتج عنه الخطأ في التصديقات والأحكام، مع ذكر بعض الأعلام الذين امتنعوا عن تعريفه معلِّلِينَ ذلك بوضُوحِه أو عُسْرِه.

أولا. تعريف العلم

1. **تعريف العلم لغة**: هو نقيض الجهل، ويطلق على المعرفة والإدراك أيضا، ونقل ابن منظور عن ابن جني أنه لا يوصف الرجل بكونه عالما إلا بعد المزاولة وطول الملابسة؛ حتى كأنَّه صار غريزة لصاحبه، ولا يقال لأوَّل دخول فيه، ورجل علاَّمَةٌ إذا بالَغْتَ في وصفِه بالعلم؛ أي عالمٌ جدًّا والهاء للمبالغة.[1]

والعلم أشهر من أن يُعرَّفَ؛ لأنَّه صفَةٌ يتَّصفُ بها الإنسان، ويشعرُ بها في حياته، قابلة للزيادة والنَّقص، والتَّجَدُّد والجمود، لذلك قيل: هو مستغن عن التعريف.[2]

وتعريف المعرَّفِ تحصيلٌ حاصلٌ، يُنَزَّه العقلاء عن الاشتغال به والتَّنظيرِ له.

(1) ينظر لسان العرب، لابن منظور، ج 35، ص 3083

(2) التعريفات، للجرجاني، ص130

2.**تعريف العلم اصطلاحا**: لا شك أن تعريف العلم يختلف باختلاف الفن ومجالات البحث، لكن هذا الاختلاف اصطلاحي فقط يتعلق بالألفاظ المعبرة عن المعنى وإن كان المقصود واحدا، لذلك نجدُ مِنْ أَجْمَعِ وأَمْتَعِ التعريفات للعلم؛ تعريفات اللُّغويين الذين هم أقدرُ النَّاس على البيان والوصف، والمناطقة كذلك الذين اهتموا بضبط التعريفات والحدود والتصورات؛ لأنَّ لها بالغ الأثر في الأحكام؛ وفي ميدانهم يسمونها بالتصديقات، وقد عرَّفوا العلم بما يلي:

أ. هو معرفة الشيء على ما هو به[1]

وهذه عبارة الكفوي رحمه الله تعالى التي تدل على أنَّ العلم هو عبارة عن إدراك الشيء والإحاطة به كما هو موجود في الواقع، وذكر بعض التقسيمات المنطقية له، كما ذكر بأنَّه قد يُكَنَّى بالعلم عن العمل؛ لأنَّ العمل إذا كان نافعا قلَّمَا يَتَخَلَّفُ عن علم.[2]

وهذا يدلُّ على موسوعية الأوائل، وتبحُّرِهم في العلوم اللُّغويَّة والمنطقيَّة، وحرصِهم الكبيرِ على تزكية الأَنْفُسِ والعمل بالمعلُومِ والتَّنبيهِ على ذلك، ولو في مقامات التَّنظيرِ والتَّعريف، وذلك ثمرة العلم.

ب. جمع الجرجاني عدة تعريفات للعلم، منها: "هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع".[3]

ويلاحظ على هذا التعريف ملاحظتان؛ وهما:

- أَنَّه لا يُطلَقُ لفظ العلم إلا على الاعتقاد الجازم، بمعنى القاطع الذي لا يخالطه شك أو ريب.
- كما لا يكون عِلْمًا إلاَّ إذا صدَّقَه الواقع، فإذا كان على خلافه لم يكن علما.

(1) الكليات، لأبي البقاء الكفوي، ص 610، 611.

(2) الكليات، ص611.

(3) التعريفات، ص 130.

ج. **وعرَّفه الرَّاغب الأصفهانيُّ بأنَّه:** "إدراك الشيء بحقيقته، وذلك ضربان: أحدُهما إدرُاكُ ذات الشيء، والثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه.[1]

والذي يلاحظ على هذا التعريف أنَّه جمعَ بين التَّصوُّر والتَّصديقِ في آن واحد؛ وهذا مشرَبُ المناطقَةِ؛ وفي ذلك يقول الشيخ عبد الرحمن الأخضري رحمه الله تعالى :

إدراك مفرد تصورا علم ودرك نسبة بتصديق وسم

و قدم الأول عند الوضع لأنه مقدم بالطبع[2]

هذا مجمل ما ذكره علماء العربية والمنطق في تعريفهم للعلم؛ وهناك من توقَّف وقال: هذا اللَّفظُ لا يحتاج إلى تعريف لوضوحه وتجَلِّيه، باعتبار أنَّ المعرَّفَ لا يُعَرَّفُ، لكن قد يطلق لفظ العلم على معاني أخرى، نتعرَّضُ لذكر بعضها لا حقا إن شاء الله تعالى، تتميما للفائدة وبيانا لأهمية ذلك.

ولكن قبلَ ذلك نَنْقُلُ فائدة ذكرها ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى تُؤَيِّدُ ما ذكرنَاه آنفا؛ أنَّ كثيرا من العلماء لم يَتَعَرَّضُوا لتعريف العلم لوُضُوحِه أو عسره، بل وأنكروا على من تقَحَّمَ ذلك؛ لأنَّه اشتغَالٌ بما لا يُفِيدُ، وتضييعٌ لما هوَ أوْلَى؛ قال رحمه الله تعالى:" قال القاضي أبو بكر بن العربي: بدأ المصنِّف بالنظر في فضل العلم قبل النظر في حقيقته، وذلك لاعتقاده أنَّه في نهاية الوضوح فلا يحتاج إلى تعريف، أو لأنَّ النَّظرَ في حقائق الأشياء ليس في فن الكتاب، وكلٌّ منَ القَدْرَيْنِ ظاهر؛ لأنَّ البخاري لم يضع كتابه لحدود الحقائق وتصورها، بل هو جار على أساليب العرب القديمة فإنهم يبدؤون بفضيلة المطلوب للتشويق إليه إذا كانت حقيقته مكشوفة معلومة، وقد أنكر بن العربي في شرح الترمذي على من تصدَّى لتعريف العلم؛ وقال: هو أبين من أن

(1) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ج1 ، ص 446 1

(2) الضوء المشرق على سلم المنطق للأخضري، محمد فال الشنقيطي، ص 40 ، 41

يُبَيَّن، قلت: وهذه طريقة الغزالي وشيخه الإمام؛ أنَّ العلم لا يحد لوضوحه أو عسره".[1]

وهو الكلام نفسه الذي قاله الشرَّاح على متن الأخضري، لما لم يتعرض لحد العلم، وذكر أنواع العلم الحادث فقط؛ فقالوا: "لم يتعرَّض الناظم لحده لما فيه من الخلاف، حتى قيل: إنه لا يُحَدُّ بشيء إلا وكان أوضح منه"[2].

لكن الذي يظهر – والله أعلم – أن ضبط الألفاظ شيء في غاية الأهمية سواء كانت في غاية التجلي والوضوح أو في غاية الخفاء والغموض؛ لأن الناس تختلف مداركهم ومستوياتهم وخاصة إذا شاعت بعض المفاهيم الخاطئة التي ينبغي أن تصحح و توضح كالخلط بين المصطلحات، وكذلك الذين عَرَفُوا حُجَّةٌ على الذين امتَنَعُوا؛ لأن الإحجام مع الإمكان قد يُعَدُّ عيبا ونقصا، وإذا كان عصر ذلك الجيل لا يحتاج إلى تعريف مثل هذه الألفاظ فاعتبار الأجيال القادمة فيه بعد نظر وسداد فكر؛ وتبقى المسألة نسبية فحتى الذين زعموا أنَّ الغزالي لم يُعَرِّف العلم لعُسْرِه، لا يُسَلَّم لهم؛ لأنَّه فعل ذلك في بعض كتاباته؛ لما قال مثلا:"...إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم، ما هي؟ فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين مقارنة...".[3]

وهذا يؤكد ما قررناه سابقا أنَّ الإقدام على التعريف أفضل من الإحجام ، وربما الذين نسبوا إلى الغزالي عدم التعريف اقتصروا على بعض مؤلفاته دون الإحاطة بجميعها لأنها كثيرة ومتنوع.

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ج1، ص186

(2) الضوء المشرق ، ص 40

(3) رسالة المنقذ من الضلال، لأبي حامد الغزالي، ص 147.

ثانيا. تقسيمات العلم:

قسم العلماء العلم تقسيمات كثيرة باعتبارات مختلفة؛ ومنها:

1/ باعتبار مصدره وإمكانية التوصُّل إليه:

يرى أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى بأنَّ العلوم ثلاثة: علوم عقلية محضة أو غير شرعية، وعلوم نقلية محضة، وإن شئت قلت دينية أو شرعية، وعلوم تأخذ منهما ويمكننا أن نعبر عنها بأنَّها عقلية نقلية لا تستقلُّ بجهة واحدة، وهي الأفضل والأشرف عنده كالفقه وأصوله، وهذا ما صرح به في "المستصفى" لما قال: "ثم العلوم ثلاثة:

- عقلي محض: لا يحث الشرع عليه ولا يندب إليه، كالحساب والهندسة والنجوم وأمثاله من العلوم...
- ونقلي محض: كالأحاديث والتفاسير، والخطب في أمثالها يسير، إذ يستوي الاستقلال بها الصغير والكبير؛ لأنَّ قوة الحفظ كافية في النقل، فليس فيه مجال للعقل.
- وأشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع، واصطحب فيه الرأي والشرع، وعلم الفقه وأصوله من هذا القبيل، فإنه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل، فلا هو تصرُّف بمحض العقول، بحيث لا يتلقَّاه الشرع بالقبول، ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسديد".[1]

والذي يلاحظ على هذا التقسيم أنه مقبول إلى حد ما، لكن ينبغي توضيح بعض النقاط فيه، فالعلوم العقلية المحضة وإن كان الشرع لا يطالب بها كل شخص بعينه فهي من باب فروض الكفايات، التي هي مطلوبة من جملة المكلفين حيث تأثم الأمة في مجموعها إذا لم يقم بها أحد، إلا إذا كان يقصد العلوم التي هي أقرب إلى الكهانة والتنجيم أو لا نفع فيها ولا تقوم عليها الأمم فإن ذلك مسلم له، وبعد مراجعة في

(1) المستصفى من علم الأصول، لأبي حامد الغزالي، تح حمزة بن زهير حافظ، ج1 ص 3 – 4.

كتب الغزالي وجدناه فصَّلَ القول والكلام فيما أجمله هنا، وإن كان النقل طويلا نوعا ما لكن نذكره كاملا إن شاء الله تعالى لنفاسته وشموليته؛ إذ يقول في كتاب "إحياء علوم الدين": "...والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية، وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة، فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود، وإلى ما هو مذموم، وإلى ما هو مباح، فالمحمود ما ترتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب، وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة، أما فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما....وأما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه، ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه، وأما المذموم فعلم السحر والطلسمات والشعبذة والتلبيسات، وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه".[1]

ويرى أن أشرف العلوم ما جمع بين النقل والعقل؛ كما سبقت إليه الإشارة آنفا؛ لأن فيه تتسامى الرتب، وتتفاوت الاجتهادات لتفاوت المدركات؛ قال رحمه الله تعالى: "ولأجل شرف الفقه وبسببه وَفَّرَ الله دواعي الخلق على طلبه، وكان العلماء به أرفع العلماء مكانا، وأجلَّهم شأنا، وأكثرَهم اتباعا وأعوانا".[2]

ويمكن أن نضيف هنا تقسيما آخرَ يندرج تحت المصدرية، وطريقة التوصل إليه؛ وقد قال به كثير من المناطقة والأصوليون؛ وهو على النحو التالي:

(1) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، تح محمد الزغبي، ج1، ص 79، 80.

(2) المستصفى، ص4.

علم ضروري وعلم مكتسب، فالضروري: مالم يقع عن نظر واستدلال، كالعلم الواقع بإحدى الحواس الخمس...فإنه يحصل بمجرد الإحساس بها من غير نظر واستدلال.

وأما العلم المكتسب فهو الموقوف على النظر والاستدلال كالعلم بأن العالم حادث، فإنه موقوف على النظر في العالم وما نشاهده فيه من التغير، فينتقل من تغيره إلى حدوثه.[1]

وهذا التقسيم يعكس منهج المناطقة في إقامة الحجة والبرهان على صحة الأشياء والمعتقدات والمذاهب بغض النظر عن كون العلم شرعيا أو كونيا[2].

2/ باعتباره مقصودا لذاته أو وسيلة وآلة لغيره:

فالعلوم إما تقصد لذاتها وتسمى: علوم مقاصد كالقرآن الكريم وتفسير والحديث النبوي وشرحه وعلم السلوك والتزكية ومعرفة أمراض القلوب وعللها، أو تكون وسيلة وذريعة لغيرها؛ كاللغة العربية والمنطق وتسمى: علوم آلات ووسائل.

وهذا ما نصَّ عليه الأكابر؛ كابن خلدون رحمه الله تعالى إذ يقول:

"اعلم أنَّ العلوم المتعَارَفَةَ بين أهلِ العمران على صنفيْنِ: علومٌ مقصودةٌ بالذَّات؛ كالشَّرعيات من التَّفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وكالطبيعيات والإلهيات من الفلسفة، وعلوم وسيلة آليَّة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات كالمنطق للفلسفة".[3]

وهذا ما ألمح إليه ابن جزي الغرناطي رحمه الله تعالى في مقدِّمة تفسيره؛ لما قال:"...فإنَّ علم القرآن العظيم هو أرفعُ العلوم قدرا، وأجلِّها خطرا، وأعظمِها

(1) شرح متن الورقات، لجلال الدين المحلي، ص 48 – 49.

(2) ينظر التعريفات ، ج1، ص 131

(3) المقدمة، لابن خلدون، ج1، ص 738.

أجراً، وأشرفِها ذكرا..." إلى أن قال "وصنَّفت هذا الكتاب في تفسير القرآن العظيم وسائر ما يتعلَّق به من العلوم، وسلكت مسلكا نافعا، إذ جعلته وجيزا جامعا، قصَدْتُ به أربعة مقاصد".[1]

فابن جزي رحمه الله تعالى يرى أن العلوم كلها خادمة لكتاب الله تعالى وهو المقصود أصالة.

وهذا لا يختلف فيه اثنان أن العلوم الشرعية سواء كانت مقاصد أو آلات ووسائل فهي خادمة للوحيين، ولو لم تكن في نفسها شرعية لكن خاض الناس فيها لكونها تتعلق بالشرع كاللغة والنحو؛ قال الغزالي رحمه الله تعالى: "الضرب الثالث: المقدمات، وهي التي تجري منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو، فإنَّها آلة لعلم كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكل شريعة لا تظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة...".[2]

وأشار ابن خلدون إلى خلَلٍ منهجي جسيم يقع فيه الناس، وهو التوسُّع المفرط في تَعَلُّمِ وتَعْلِيمِ علوم الوسائل والآلات حتى يُصَيِّرُها البعض من علوم المقاصد، فيُفْنِي الأعمار في تحصيلها وسبر خفاياها ودقائقها، مما يُؤَدِّي به إلى تضييع الأَوْلَى والمقصود، فيفوتُه المبتغَى والمأمُول، وإليكم مقطعا من ذلك التنبيه النبيه، قال رحمه الله تعالى:"...وهذا كما فعل المتأخرُّون في صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه؛ لأنَّهم أوسَعُوا دائرة الكلام فيها، وأكثروا من التفاريع والاستدلالات، بما أخرجها عن كونها آلة وصيَّرها من المقاصد، وربما يقع فيها لذلك أنظار ومسائل لا حاجة بها

(1) وهي جمع كثير من العلم في كتاب صغير الحجم، وذكر نكت عجيبة وفوائد غريبة، وإيضاح المشكلات وحل المقفلات، وتحقيق أقوال المفسرين وتمييز الراجح من المرجوح. التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم محمد بن جزي الغرناطي، ج 1 ص 4.

(2) إحياء علوم الدين، ج 1، ص 81

في العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو، وهي مُضِرَّةٌ بالمتَعَلِّمِينَ على الإطلاق؛ لأنَّ المتعلِّمِينَ اهتمامُهُم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها، فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد؟".[1]

وهذا ما نرى ثمراته في واقعنا المرير حيث عكف النَّاس على كلام الأوائل، وعجزوا عن تكييف بعض القضايا الطارئة متَهَيِّبِين اقتحام باب الاجتهاد الذي من أجله درسوا علوم الوسائل، خوفا من التشنيع ومن مخالفة المعهود.

المطلب الثاني: أصول آداب طالب العلم الشرعي في الأخذ والكتابة والتأليف

نحاول في هذا المطلب ذكر أصول الأخلاق وجوامعها التي ينبغي أن يتحلَّى بها طالب العلم الشرعي، سواء كان ذلك في مرحلة الأخذ ومزاحمة العلماء بالرُّكَبِ، أو في مرحلة النضوج والتعليم وتقَحُّم ميدان الكتابة والتأليف، فإنَّ العلم النَّافعَ هو ما أورث خشية الله في الدنيا والفوزَ والرضوان في الآخرة؛ وإلاَّ فهو بغيٌ وعدوان، كما أنَّ هذه الأخلاق إذا تحقَّقَت كانت عاصمة لصاحبها من الوقوع في أفعال قبيحة مشينة عمَّت بها البلوى في العصر الحالي؛ كالسرقات العلمية التي أرَّقَتْ أهل الجدِّ والمثابرة.

ولوجود مؤلفات كاملة في ذلك سنقتصر على ذكر أهم الأخلاق والآداب التي قلَّت في هذا الزمان، أو لم تُعْطَ حقَّهَا من العناية والاهتمام وهذا من قبيل التَّذكير، فما هي أهم هذه الصفات والأخلاق ؟ وهل تكلَّمَ سلفُنا عن أعراف الكتابة والتأليف قديما وعن الأمانة العلمية وقعَّدُوا لها مثلا في كتبهم؟

أولا : من أصول آداب طالب العلم الشرعي في الأخذ والطلب

1/ تصفية القصد من الشوائب و الحظوظ الفانية:

وهو أن يقصد وجهَ الله تعالى بعلمه، والعمل بما علم، وينوي تحلية باطنه وتجميله بالفضائل، وتحقيق رضوان الله تعالى يوم القيامة، وهل يُطْلَبُ العلم إلا لذلك، ولا

(1) المقدمة، ج 1، ص 739

يقصد به الحظوظ النفسية والأغراض الدنيوية الفانية؛ كالرئاسة والشهرة وتصدر المجالس والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران.[1]

وهذا ما نصَّ عليه الأوائل، بل لخطورة الأمر أَلَّفُوا المؤَلَّفَاتِ ودَوَّنُوا الدَّوَاوين في ذلك، كالآجري رحمه الله تعالى الذي أَلَّف رسالة كاملة سماها "أخلاق العلماء"، ومما قاله في هذا الصدد؛ وهو تصفية القصد قبل خوض غمار الطلب: "فَمِنْ صِفَتِه لإِرَادَتِه في طلب العلم أن يعلمَ أنَّ الله عزَّ وجلَّ فرضَ عليه عبادتَه، والعبادة لا تكون إلاَّ بعلم، وعلم أنَّ العلم فريضة عليه، وعلم أنَّ المؤمنَ لا يَحْسُن به الجهل، فطلب العلم لينفي عن نفسه الجهل، وليعبدَ الله عز وجل كما أمره ليس كما تهوى نفسه، فكان هذا مراده في السعي في طلب العلم، معتقدا للإخلاص في سعيه، لا يرى لنفسه الفضل في سعيه، بل يرى لله عز وجل الفضل عليه إذ وَفَّقَه لطلب علم ما يعبده به من أداء فرائضه واجتناب محارمه".[2]

ولكون هذا الأمر من أهمِّ المهمَّات بدأ به كل من أَلَّف في فضل العلم وآداب أهله، وذكروا ذلك في المقدمات حتى تصحح النيات قبل الخوض في الطاعات والقربات؛ ودفعا للتطويل نقتصر على ضرب مثالين على ذلك، قال الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى: "ثم إنِّي موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه، وإجهاد النفس على العمل بموجبه، فإنَّ العلم شجرة، والعمل ثمرة، وليس يُعَدُّ عالما من لم يكن بعلمه عاملا".[3]

ولم يكتفوا بتصحيح النيات في مجالس العلم فقط، بل كتبوا رسائل خاصة في ذلك لبعض طلبتهم الموفقين الذين سألوهم ذلك، أو توسموا فيهم الخير والصلاح وحمل المشعل وراءهم، كما فعل ذلك أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في رسالة "أيها الولد"

(1) ينظر إحياء علوم الدين، ج 1، ص 137 – 138

(2) أخلاق العلماء، لأبي بكر الآجري، تعليق: إسماعيل الأنصاري، ص 47

(3) اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي، ص 18

والتي جاء في مستهلها: "أيها الولد كم من ليال أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب وحَرَّمْتَ على نفسك النوم، لا أعلم ما كان الباعث فيه ؟، إن كان نيتك غرض الدنيا وجذب حطامها وتحصيل مناصبها والمباهاة على الأقران والأمثال، فويل لك ثم ويل لك، وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبي عليه السلام وتهذيب أخلاقك وكسر النفس الأمارة بالسوء فطوبى لك ثم طوبى لك، وقد صدق من قال:

سَهَرُ العُيُونِ لغَيْرِ وَجْهِكَ ضَائعٌ وبُكَاؤُهُنَّ لغيْرِ فَقْدِكَ بَاطِلُ "(1)

فالغزالي هنا بيَّن المقاصد التي ينبغي أن يقصدها الطالب قبل أن يخوض هذا المضمار ويتجشَّم هذا العنَاءَ، وإلاَّ كان جهلُه أحسنَ من علمِه، و ذكر العلماء مسائل دقيقة في هذا الجانب قلَّ من تخطر بباله كمسألة امتحان الطالب قبل إعطائه العلم ومعرفة إن كان المحل قابلا أو غير ذلك، واختلفت مشاربهم في ذلك، والذي نراه أن الزمن جزء من العلاج كما يقولون، ورب طالب يبدأ المسيرة العلمية وكله غرور ورياء ولهث وراء الشهرة والتصدر، وبعد سنوات أو عقود من مخالطة المشايخ الربانيين وأهل الصلاح والإصلاح تلامس حلاوة الإيمان قلبه ويتداركه الله بمنه وفضله، فيصير من أفضل خلق الله ومن أعبدهم وأشدهم تألها لله، فالقلوب بيد الله تعالى فلا ينبغي الاستعجال في الحكم على الناس، ويؤيده ما قاله "الإمام الشعراني" لَمَّا ذكر أخلاق السلف ومعاملتهم مع الله تعالى ومع خلقه؛ فقال: "ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم إذا علموا بالقرائن عدم إخلاص من يتعلَّم منهم العلم أن يدوموا على تعليمه ولكن يتوِّجوا إلى الله تعالى في الدعاء له بإصلاح النية فيُؤْجَرُون هم وإياه، ولا يتركون تعليمه فإن ذلك بمراد الشارع، وذلك لأنَّ العلم يحمل لأمرين: للعمل به ولإحياء الشريعة به، فصاحبه مأجور على كلِّ حال إمَّا أجرا كاملا أو أجرا ناقصا، وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: ما من حامل علم إلاَّ وهو يعمل به ولو في حق نفسه إذا ارتكب المعاصي؛ لأنَّه يتوب ويندم إذا وقع فيها، فلولا علمه بالحكم ما اهتدى؛ لكون ذلك ذنبا ولا تاب منه، فقد عمل هذا بعلمه من تلك الحيثية وإن

(1) شرح أيها الولد للإمام الغزالي، لمؤلف مجهول، تح : محمد هادي المارديني ، ص 30 – 31

كان ممن ارتكب المعاصي لم يعمل بعلمه على مصطلح الناس فافهم، فالعلم نافع لصاحبه على كل حال ولم يزل علم كل إنسان أكثر من عمله في كل عصر".[1]

وهذا كلام عجيب بين خفايا ولاحت به خبايا، فإن عدم العمل بالعلم غير ما يعتقد عند عامة الناس من أنه مقارفة لبعض الذنوب والمعاصي، فالمؤمن غير معصوم تزل به القدم في بعض المرات، فإن كان علمه نافعا حمله على التوبة والرجوع والإنابة إلى الله تعالى فيكون قد انتفع بذلك، ولا يستوي هذا وذلك الجهول الجسور، الذي ينتقل من معصية إلى أخرى، وينغمس في المنكرات والمعاملات المحرمة ولا يدري أصلا أنه وقع في محرَّم أو قارف محظورا أو بات وربه ساخط عليه، ولعل هذا الذي قصد من الكلام السابق الذي نقلناه.

2/ الحرص على الأدب و العمل بالعلم وخشية الله تعالى:

فهو أصل كل خير وفتح، وهو ثمرة الصدق الذي هو استواء الظاهر والباطن، فلا ينبغي أن يكذب فعله قوله؛ لأن ذلك منهي عنه شرعا، ولأنه قدوة لغيره، فالويل له والبعد له، إن كان سببا في بغض الناس لدين الله تعالى؛ لأنهم رأوا فيه المثال السيِّء لتصرفات بعض منتحليه، فإنه يحمل وزره ووزرهم أيضا، ولهذا كان علماء الإسلام ينهلون من أدب مشايخهم قبل أن يأخذوا من علمهم، وورثوا أحوالهم قبل أن يرثوا أقوالهم، فهذا الإمام مالك رحمه الله تعالى عالم المدينة وإمام دار الهجرة؛ يقول: "كانت أميِّ تُعَمِّمُني وتقول لي: اذهب إلى ربيعة فتعلَّم من أدبه قبل علمه".[2]

(1) تنبيه المغترين، لعبد الوهاب الشعراني، ص36 .

(2) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض، تح: محمد سالم هاشم، ج 1، ص 54

وهذا من فقه هذه المرأة الصالحة، وهذا ما فعله هذا الابن البار، والحبر الهمام، الذي أخذَ هذا الأدب الجم فنقله بالسند العملي المتصل إلى تلامذته، وكل من أخذ عنه، فوجدنا ابن وهب رحمه الله تعالى يقول: "الذي تعلَّمْنا من أدب مالك أكثرَ مما تعلَّمْنا من علمه".(1)

لذلك حرض هؤلاء الأكابر تلامذتهم وأتباعهم على العمل الصالح ونصحوهم لله تعالى، فهذا عاصم بن عصام البيهقي؛ يقول: "بت ليلة عند أحمد بن حنبل فجاء بماء فوضعه، فلما أصبح نظر إلى الماء بحاله، فقال: سبحان الله رجل يطلب العلم لا يكون له ورد من الليل".(2)

فالبيئة الصالحة والقدوة الصالحة أشدُّ تأثيرا في النفوس من غيرها وهذا الذي حرص عليه علماؤنا العاملون، الذين انتفعت الأمة بكلامهم وأحوالهم وتصانيفهم، وخلَّد الله تعالى ذكرَهم على مدار الأيام والأعوام، وبالعمل بالعلم يتحقق مقام العبودية لله تعالى وهو أشرف المقامات، وبالعمل بالعلم يحصل صفاء القلب فتنطق الألسنة بالحكمة، فيبقى كلامهم محفوظا مذكورا، ومنها أقوال مالك رحمه الله تعالى في هذا المقام لما قال: "ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يضعه الله في القلوب".(3)

ولذلك شنَّع هؤلاء على أولئك الذين لم يفهموا حقيقة العلم – الذي هو الخشية والعمل الصالح – وإن كانوا منتسبين له في الظاهر حتى سموهم بعلماء القشور وأغلظوا لهم في القول؛ كما فعل ابن الجوزي رحمه الله تعالى لما قال: "ورأيت أكثر العلماء مشتغلين بصورة العلم دون فهم حقيقته ومقصوده، فالقارئ مشغول بالروايات، عاكف على الشواذ، يرى أنَّ المقصود نفس التلاوة، ولا يتلمَّح عظمة

(1) المرجع نفسه، ج 1، ص 53

(2) سير أعلام النبلاء، لشمس الدين محمد الذهبي، تح: بشار عواد معروف، ج 11، ص 298

(3) ترتيب المدارك و تقريب المسالك، ج 1، ص 96

المتكلم، ولا زجر القرآن ووعده، وربما ظن أنَّ حفظ القرآن يدفع عنه، فتراه يترخص في الذنوب، ولو فهم لعلم أنَّ الحجة عليه أقوى ممن لم يقرأ ..."[1]

وفي نفس المجال ذكر بعض أخطاء المحدثين والفقهاء؛ حتى قال: "وعلى هذا أكثر الناس، صور العلم عندهم صناعة، فهي تكسبهم الكبر والحماقة".[2]

وهذا هو العلم الذي كان يتعوذ منه العلماء العاملون، وهو الذي استحق به صاحبه النار؛ كما قال الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى: "نعوذ بالله من علم عاد كلا، وأورث ذلا، وصار في رقبته غلا".[3]

وهو كل علم لم يورث خشية الله تعالى ولم ينتج عملا صالحا، و كلامهم في الخشية طويل لا يحصى ولا يستقصى، ولنختم بما قاله ابن عطاء الله صاحب "الحكم" إذ قال: "خير علم ما كانت الخشية معه، العلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك"[4]

3 / التأدب مع المشايخ والعلماء وملازمتهم:

وقد ورد العجب عن السلف في هذا الباب، وإن كان المقام لا يتسع لذكر كل ما ورد، سنقتصر على بعض ذلك، فإن الطالب لا ينتفع بشيخه إلا إذا نظره بعين الاحترام والكمال وتأدب معه وسارع في خدمته، وتحمل جفوته، وسارع في رضاه، قال النووي رحمه الله تعالى: "وينبغي أن ينظر شيخه بعين الاحترام ويعتقد كمال أهليته، ورجحانه على أكثر طبقته، فهو أقرب إلى انتفاعه به، ورسوخ ما سمعه منه في ذهنه"[5]

---

(1) صيد الخاطر، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، ص 313 1

(2) المرجع نفسه، ص 313

اقتضاء العلم العمل، ص319 3

(4) شرح حكم ابن عطاء الله السكندري، لأحمد زروق، تح: ناجي سويد ، ص 218

(5) المجموع شرح المهذب للشيرازي، لأبي زكريا النووي، تح: محمد نجيب المطيعي، ج1، ص 66

ونقل قصصا عجيبة منها أن بعض المتقدمين كان إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء وقال:" اللهم استر عيب معلمي عني، ولا تذهب بركة علمه عني".[1]

والتأدب مع المشايخ ومزاحمتهم بالركب أس كل خير ونفع وفتح، ولعل هذا الأمر هو الذي جعل الإمام مالك رحمه الله تعالى لا يذكر غير هذا في "الموطأ " في كتاب ما جاء في طلب العلم، حيث اقتصر على هذا الأثر بلاغا أن لقمان الحكيم أوصى ابنه فقال:"يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الله الأرض الميتة بوابل السماء".[2]

وهذا الذي ركز عليه كل من تكلم في هذا الشأن كابن جماعة رحمه الله تعالى الذي ذكر فصلا كاملا في ذلك؛ وهو الفصل الثاني الذي عنون له: في آدابه مع شيخه وقدوته وما يجب عليه من عظيم حرمته[3]، و ذكر مجمل الآداب التي تجب عليه نحو شيخه سواء ما كان من قبيل الاعتقادات أو الخدمة والتواضع والمسارعة إلى قضاء حوائجه، وسواء كان ذلك في مجلس العلم أو إذا لقيه في الطريق أو مشى معه بليل أو نهار أو سأله ، ومن ذلك قوله:" الثاني: أن ينقاد لشيخه في أموره، ولا يخرج عن رأيه وتدبيره، بل يكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر، فيشاوره فيما يقصده، ويتحرى رضاه فيما يعتمده، ويبالغ في حرمته، ويتقرب إلى الله بخدمته، ويعلم أن ذله لشيخه عز، وخضوعه له فخر، وتواضعه له رفعة".[4]

(1) المرجع نفسه ، ص 66.

(2) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ، لمحمد الزرقاني ، ج 4، ص 552، 553.

(3) تذكرة السامع و المتكلم في أدب العالم و المتعلم ، للقاضي بدر الدين بن جماعة، تح : محمد العجمي، ص96.

(4) تذكرة السامع و المتكلم، ص96.

وهذا كلام عجيب يحرك القارئ ويشعر من تلقاه بصدق وصفاء مدى تفريطه وسوء أدبه مع من علمه حرفا، فنسأل الله أن يصلح حالنا ويرزقنا الأدب مع أهل الفضل و العلم.

وذكر قصصا عجيبة للرعيل الأول، وكل من حمل أمانة العلم بإخلاص ويقين تحرك القلوب وتذرف معها العيون؛ بل تجعل الإنسان يتمنى لو لم يكتب سطرا أو يحضر مجلسا إلاَّ بعد قراءته لهذا الكتاب الذي حوى هذه الآداب' وجاء بالعجب العجاب.

وذكر هنا أدبا قلَّ من يتخلَّق به تمام التخلق، ويتحقق به في كل أحواله؛ وهو ألا ينسى الفضل لشيخه ما دام حيا ولا يذكره إلا بخير، ويرد غيبته إذا اغتابه أحد، ولا يذكره عند حساده وشانئيه حتى لا يقعوا في عرضه، قال رحمه الله تعالى: "الرابع: أن يعرف له حقه، ولا ينسى له فضله، قال شعبة: "كنت إذا سمعت من الرجل الحديث كنت له عبدا ما حيي...ومن ذلك: أن يعظم حضرته، و يرد غيبته ويغضب لها، فإن عجز عن ذلك قام وفارق ذلك المجلس".[1]

4/ عدم تضييع الأوقات ومدارسة العلم وتكراره

من أعظم الآداب والأخلاق التي ينبغي أن يراعيها المشتغل بالعلم حفظ الأوقات فيما ينفع، وطلب الاستزادة من العلم أو تعليمه، أو التطوع بالنوافل والقربات، أما أن يضيع الأوقات في البطالة واللغو فهو من شيم أهل الغفلة والبعد عن الله تعالى، وفي ظل هذا الزمان الذي نحن فيه من انتشار المغريات والملهيات ينبغي الإشارة إلى هذا الموضوع الذي صار يعاني منه أكثر الناس، وحتى المشتغلين بالعلم طلبا أو تعليما خاصة عبر وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي التي أخذت من وقت الناس الشيء الكثير، ولهذا سنذكر نماذج من سير العلماء وكيف كانوا يحرصون على حفظ الأوقات والاشتغال بالعلم والاستغناء به عمن سواه، فهذا "ابن الجوزي" رحمه الله تعالى يحدِّثنا

(1) المرجع نفسه، ص 99

عن بعض الذي كان يفعله حتى لا يضيع الوقت إذا زاره بعض أهل الفراغ؛ فيقول: "فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهاؤه بفعل الخير، كرهت ذلك وبقيت معهم[1] بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبَّلتُه منهم ضاع الزمان، فصرت أدافع اللقاء جهدي، فإذا غلبت قصرت في الكلام لأتعجل الفراق، ثم أعددت أعمالا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغا، فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد[2] وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي، نسأل الله عز وجل أن يعرفنا شرف أوقات العمر، وأن يوفقنا لاغتنامه".[3]

فانظر إلى مدى حرصهم على الأوقات ولو حاسبنا أنفسنا على تلك المحادثات أو التصفحات التي نجريها على مواقع التواصل لوجدنا أنفسنا حقَّقْنَا ما تفنى الأعمار في تحصيله، وأما علوُّ همتهم في المذاكرة والمراجعة فأخبارهم عجيبة في ذلك؛ منها ما حكي عن الإمام النووي رحمه الله تعالى أنه كان لا يضيع له وقت في ليل ولا نهار إلا في وظيفة من الاشتغال بالعلم، حتى إنه في ذهابه في الطريق وإيابه يشتغل في تكرار محفوظة أو مطالعة، وإنه بقي على التحصيل على هذا الوجه ست سنين ، وكان أول طلبه يقرأ كل يوم اثني عشر درسا على المشايخ شرحا وتصحيحا.[4]

وهذا لا يعني أن الطالب لا يستريح، فله ذلك، لكن لا يكون نَزَّاعًا إلى الفراغ والكسل والدعة، وقت خموله أكثر من وقت نشاطه، وإلا فإن الانهماك في العلم ليلا ونهارا يخشى منه السآمة والملل أو الترك بالكلية أو المرض، وليس هذا المراد، وهذا ما

(1) يقصد أهل الفراغ والبطالة.

(2) ورق الكتابة.

(3)صيد الخاطر، ص 162، 163

(4) علو الهمة، لمحمد المقدم، ص 182

نبه إليه علماء الإسلام كابن الجوزي الذي قال: "اعلم أنَّ المتعلم يفتقر إلى دوام الدراسة، ومن الغلط الانهماك في الإعادة ليلا ونهارا، فإنه لا يلبث صاحب هذه الحال إلا أياما ثم يفتر أو يمرض".[1]

ومعنى هذا الكلام أن الإنسان يصرف وقته في المهم مع مراعاة حقوق بدنه وجسمه كالراحة والنوم، فالمقصود المداومة لا الانكباب دفعة واحدة ثم الترك بالكلية.

ولعل هذه الأخلاق التي ذكرناها هي أمهات أخلاق طالب العلم الرباني، وأن كل خلق آخر وإن لم نذكره يرجع إلى واحدة من هذه الأربعة، ولما كان الطالب الرباني لما يشتد عوده يطلب منه نشر العلم وإذاعته وتعليمه ويكون ذلك عن طريق التعليم والتلقين أو التصنيف والتأليف كان حريا بنا أن نذكر أنفسنا وإخواننا بأبرز ما ينبغي مراعاته في هذا المجال.

ثانيا : من أصول آداب المؤلفين في الكتابة والتصنيف

1/ **الاشتغال بذلك عند كمال الأهليه والفضيلة**: لأنه دافع له إلى مزيد الإتقان، وكمال التحقيق، والوصول إلى غاية البحث والتفتيش، فينتفع في نفسه وينفع غيره، قال النووي رحمه الله تعالى:" فإذا فعل ما ذكرناه وتكاملت أهليته واشتهرت فضيلته اشتغل بالتصنيف وجدَّ في الجمع والتأليف، محققا كل ما يذكره، متثبتا في نقله واستنباطه، متحريا إيضاح العبارات، وبيان المشكلات، متجنبا العبارات الركيكات والأدلة الواهيات، مستوعبا معظم أحكام ذلك الفن غير مخل بشيء من أصوله، منبها على القواعد، فبذلك تظهر له الحقائق وتنكشف المشكلات، ويطلع على الغوامض وحل المعضلات، ويعرف مذاهب العلماء، والراجح من المرجوح، ويرتفع عن الجمود

(1) صيد الخاطر، ص 127.

على محض التقليد، ويلتحق بالأئمة المجتهدين أو يقاربهم إن وفق لذلك؛ وبالله التوفيق".[1]

أما من لم يصل إلى غاية التحقيق والإتقان فالأولى به ترك ذلك والاشتغال بالعلم، فإنَّه أولى حتى لا يعرض نفسه للإنكار والسخرية والاستهزاء، قال ابن جماعة: "أما من لم يتأهل لذلك فالإنكار عليه متجه، لما يتضمنه من الجهل وتغرير من يقف على ذلك التصنيف به، ولكونه يضيع زمانه فيما لم يتقنه، ويدع الإتقان الذي هو أحرى به منه".[2]

وانظر رحمك الله تعالى إلى هذه الفوضى الدينية التي يعيشها المسلمون في هذا العصر، والتي من أسبابها تصدُّر من لا يصلح للفتوى للإفتاء، وتجرؤ الناس على الكتابة والتأليف وإن لم يصلحوا لذلك، وكثرة الألقاب الموهمة التي لم تمنح للجيل الذهبي كالعلامة، والمفكر، والمحدث؛ وهلم جرا.

2/ **الأمانة العلمية وإضافة الأقوال إلى أصحابها**: فإن أهل العلم لم يزل بعضهم ينتفع بمن قبله، ويبني بعضهم على بناء بعض، لكن لا يعني هذا الاستيلاء على جهود الغير ونسبتها للنفس، فإن هذا يعتبر تشبعا بما لم يعط وهو منهي عنه، وهو تدليس وخداع، وهذا الذي نص عليه العلماء الأعلام منذ القديم، وخاصة إذا كانت الفائدة غريبة لم يسبقه إليها أحد، فينبغي إضافتها إلى صاحبها والتنويه بمنزلته وهذا من بركة العلم، قال النووي رحمه الله تعالى: "من النصيحة أن تضاف الفائدة التي تستغرب إلى قائلها، فمن فعل ذلك بورك له في علمه و حاله، ومن أنف من ذلك، وأوهم فيما يأخذه من كلام غيره أنه له فهو جدير ألا ينتفع بعلمه، ولا يبارك له في حاله، ولم يزل

(1) المجموع شرح المهذب، ص 70.

(2) تذكرة السامع و المتكلم، ص 60.

أهل العلم والفضل على إضافة الفوائد إلى قائلها، فنسأل الله التوفيق إلى ذلك دائما".[1]

فهذه جمل من جماع آداب طالب العلم في الأخذ والطلب والتأليف والتصنيف؛ حاولنا جمعها من كتب أهل العلم والفضل، نسأل الله تعالى أن يخلقنا بها وأن يحققنا بها وأن يرزقنا العلم النافع وأن يجنبنا مواقع الزلل والخطل.

(1) بستان العرفين، لأبي زكريا النووي، ص 74

الخاتمة

في ختام هذه البحث ينبغي التنويه بأهمية العلم في حياة المسلم، ودوره في بناء الفرد الصالح والمجتمع المتطور، ولا سبيل للعلم أن يرفع شأن الأفراد والمجتمعات إلا بارتباطه بإخلاص القصد لله تعالى، والتزام الطالب والعالم والمعلَّم بالأخلاق الإسلامية وآداب البحث والجدال؛ وإن التخلف الذي ترزح تحته الأمة الإسلامية في جميع مستوياتها هو نتيجة تفريطها الكبير في هذا الجانب وعدم التزام الكثير من المنتسبين للعلم بهذه الأخلاق والآداب إن أي محاولة جادة لإرجاع الأمور لنصابها لا بد فيها من مراعاة أخلاقيات البحث العلمي وأدبياته، مع محاولة تطوير النتاج العلمي والاستفادة من خبرات الآخرين وتجربتهم وإبداعاتهم، لكن بكل أمانة وصدق بعزو الفوائد إلى أصحابها وعدم القفز على جهودهم وحقوقهم الفكرية والأخذ بأصول الآداب والالتزامات التي رسمها لنا علماؤنا وعدم التأثر بالمناهج الغربية التي تجعل من نسبية الأخلاق والقيم معيارا يتحاكمون إليه.

قائمة المصادر والمراجع

1) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، تح: محمد الزغبي، ط1، 1432هـ، دار الغد الجديد، القاهرة.

2) أخلاق العلماء، لأبي بكر الآجري، تعليق: إسماعيل الأنصاري، تط 1498هـ، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية.

3) اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي، تح: محمد ناصر الدين الألباني، ط1، 1422هـ، مكتبة المعارف، الرياض.

4) بستان العارفين، لأبي زكريا النووي، ط1، 1434هـ، دار المنهاج، السعودية.

5) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، للقاضي بدر الدين محمد بن جماعة، تح: محمد العجمي، ط3، 1433هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت لبنان.

6) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض، تح: محمد سالم هاشم، ط2، 1433هـ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

7) التسهيل لعلوم التنزيل، لمحمد بن جزي الغرناطي، تح: محمد سالم هاشم، ط1، 1415هـ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

8) التعريفات، لعلي الجرجاني، تح: محمد الصديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة مصر.

9) تنبيه المغترين، لعبد الوهاب الشعراني، مطبعة مصطفى محمد، مصر.

10) رسالة المنقذ من الضلال، لأبي حامد الغزالي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2008، الجزائر.

11) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، لمحمد الزرقاني، ط4، 1432هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

12) شرح أيها الولد للإمام الغزالي، لمؤلف مجهول، تح: محمد هادي الماردیني، ط1، 1433هـ، مكتبة سيدا، تركيا.

13) شرح حكم ابن عطاء الله السكندري، لأحمد زروق، تح: ناجي سويد، 1433هـ، المكتبة العصرية صيدا، بيروت لبنان.

14) شرح متن الورقات، لجلال الدين المحلي، ط1، 1429 هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان.

15) صحيح البخاري، تح: محمد زهير الناصر، ط1، 1422هـ، دار طوق النجاة (دم).

16) صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان .

17) صيد الخاطر، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، ط1، 1428هـ، دار الإمام مالك، الجزائر.

18) الضوء المشرق على سلم المنطق للأخضري، لمحمد فال الشنقيطي، تح: عبد الحميد الأنصاري، ط2، 1434هـ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

19) علو الهمة، لمحمد المقدم، دار ابن الجوزي، القاهرة مصر.

20) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن حجر العسقلاني، ط3، 1420هـ، دار السلام، الرياض السعودية.

21) الكليات، لأبي البقاء الكفوي، ط2 ، 1419هـ، دار الرسالة، بيروت لبنان.

22) لسان العرب، لابن منظور، مجموعة من المحققين، دار المعارف، القاهرة.

23) المجموع شرح المهذب للشيرازي، لأبي زكريا النووي، تح: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، السعودية.

24) المستصفى من علم الأصول، لأبي حامد الغزالي، تح: حمزة بن زهير حافظ، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر.

25) المفردات، للراغب الأصفهاني، الناشر نزار مصطفى الباز، جدة السعودية.

26) المقدمة، لابن خلدون، 1421هـ، دار الفكر، لبنان.